فاميل توما لا ينطلق من موضوعات نظرية او مقولات ومفاهيم تاريخية ، بل يقدم عرضا تجريبيا للتاريخ (كرونولوجي) انه يراكم معلومات احصائية وتواريخ واستشهادات ٠

ان الكتاب الذي بين ايدينا يحتوي على معلومات غزيرة وعلى وثائق عديدة مبوبة في فصول تعكس عناوينها فقط المنحى الذي يعرضها فيه الكاتب ٠ فأمامنا كتاب وثائقي اكثر منه تحليلي وكان من غير الممكن عرضه في هذا المجال سوى باعادة تلخيصه ، الامر الذي تفاديناه ٠

يبرز امامنا تساؤل ، لماذا نعيد كتابة التاريخ ؟ كيف نكتبه ؟٠ هل كتابة تاريخ ما او تاريخ حقبة معينة هي بهدف اعادة التذكير به ام اعادة رسم احداثه وتطوراتها واعادة ترتيب هذا التاريخ ورسم معالمه البارزة ؟٠ولماذا نختار هذه الحقبة ؟ ما هو الهدف الابعد لكتابة التاريخ ؟ هل لحفظه ام لرؤيته من موقف نظري مغاير لما هو سائد ؟ ام لاستنباط « امثولات » منه وتجارب تفيد في ضبط مجريات الحاضر وفي صنع المستقبل ؟٠

لعل اعادة كتابة التاريخ هي بهدف فهم الحاضر وامكانيات تطوره والفعل فيه ٠ اذا كان هذا هو الهدف ، فان كتاب توما لا يؤدي الى هذه الغاية على الاطلاق ٠ بل هو ، مع اعتبار حجم واهمية المادة المطروحة فيه ، لا يمكن ان يصنف الا كتابا يحفظ الوثائق والمعلومات بطريقة مبوبة٠ ومما يجدر ذكره ، ان هذه المادة التي ضمها الكتاب نشرتها مجلة « الجديد » على حلقات عام (١٩٦٩) تحت عنوان « دراسات في القضية الفلسطينية » ما عدا فصوله الاخيرة التي نشرت بعد العام (١٩٧٠) ٠

ان الافكار الواردة في الكتاب او الاستنتاجات ، غير مدعومة على الاطلاق بتحليل من قبل الكاتب ، ولذلك امكن ازاءها « تأويل » المعلومات التي اوردها للوصول الى استنتاجات مغايرة ٠

نورد فيما يلي بعض الملاحظات النقدية التي تشير الى عدم التوافق بين اسلوب طرح المعلومات والتوصل الى الاستنتاجات بشكل يبدو مفاجئا او غير مدعوم بتحليل مسبق :

١ ـ « اعرب هذا الانقسام [جمعية العهد التي انقسمت الى قسمين سوري وعراقي اثر وضوح نيات الحلفاء واغراضهم] ٠٠ عن عمق خطوط التجزئة الاقليمية التي خلفتها الاقطاعية (الشرقية) التي انتشرت في عهد اضمحلال الامبراطورية العربية الاسلامية وثبتتها السيطرة العثمانية ـ» ٠ ص ١٨

وردت هذه الفقرة دون ان يسبقها حديث عن الاقطاعية الشرقية في العالم العربي٠ ما هي علاقة الاقطاعية الشرقية بالتجزئة الاقليمية العميقة ، في حين كان امل الوحدة العربية ولا يزال مطروحا في معظم برامج الاحزاب العربية حتى الان ، ناهيك عن التيار الشعبي العام ٠

٢ ـ « فجرت ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى موجة ثورية في انحاء العالم ٠٠ هزت هذه الموجة العالم العربي ٠٠ فشهد ثورات واصطدامات مسلحة في مصر (١٩١٩) والعراق (١٩٢٠) وسوريا (١٩٢٠) والمغرب الاقصى (ثورة الريف في العشرينات) » ص ٢٢ ٠

لم يذكر هنا ايضا كيفية تأثير هذه الموجة الثورية على العالم العربي ٠ هل تم التعبير عن هذا التأثير في شعارات الثورات والاصطدامات المسلحة وبرامجها، ام كان التأثير فقط بـ « الايحاء » الثوري لاستلام العمال والفلاحين السلطة في اول بلد اشتراكي في العالم ٠ وهل كانت هذه الثورات على نفس المستوى من